

الفصل التاسع عشر

وصية شخصية

رسالة إلى ولدي

لا يمكن أن أتخيل نوع العالم الذي يخبئه الغد، لكن ما لم يحل الملك الألفي، سيكون العالم غداً أشدّ عداءً للأسرة. فإذا تمهّل الربّ حتى تتزوّجا وتشرعا تربيان الأطفال، فإليكما ببضع نصائح من أبيكما.

أولاً، ليعلم كلُّ منكما أنّ المرأة التي سيتزوّجها ستكون أمّاً دائمة لأطفاله، وكل ما تمتلكه من تراكم لخبراتها الماضية سيكون حاضراً في أمّ أطفاله. وليس هناك قرار رئيسي يؤثّر على مستقبل أطفالك أكثر من اختيارك لشريكة حياتك. إن للعلاقة بين الرجل وزوجته تأثيراً على الأطفال أشدّ من أي عامل آخر. قد يعبرّ الزوجان عن خلافاتهما في السرّ فقط، لكن لا يمكنهما إخفاء الآثار المترتبة عليها عن أطفالهما. تذكّر، مستقبل أطفالك مرهون بالعلاقة القائمة بينك وبين زوجتك، أمّ أولادك.

لذا احرص على تنمية علاقتك مع زوجتك. سدّد حاجاتها. اجعلها سعيدة. فحالتها النفسية هي ٥٠% من القدوة التي يراها أطفالك، و١٠٠% عندما تكون غائباً. فإذا أحببت زوجتك وأعززتها،

أحبها الأطفال وأعزوها أيضاً. إذا كنت خادماً لها، ستترجم قدوتك إلى خبرة عملية في حياتهم.

عندما تبحث عن زوجة، وأمّ لأطفالك، ينبغي أن يكون المؤهل الأول حبها للرب وتلميذه. لا شيء آخر يحفظ زواجكما مدى الحياة. وستحتاج مثل هذه الزوجة أن تعرف كيف تصلّي. فالفتاة التي تستهين بالمسيح ولا تهتم به، ستعمل نفس الشيء مع أسرتها. ولا ينس الرجال أن النساء «وَارِثَاتٍ أَيضًا مَعَكُمْ نِعْمَةَ الْحَيَاةِ» (١ بطرس ٣: ٧). يستلزم الأمر اثنين مقترنين معاً بالتساوي تحت نير الزواج لجرّ عربة الأسرة بسلامة عبر صحاري هذه الحياة المعادية.

أمّا ثاني شيء تبحث عنه في زوجة المستقبل فهو البشاشة وطلاقة الوجه. قد يهمل البعض هذا المؤهل بجملته، لكني لا أستطيع التأكيد بما يكفي على قيمة هذه السجية وأهميتها العملية. فالبنت الحزينة المستاءة من نصيبها قبل الزّواج لن تتغيّر فجأةً بعده. جميعنا نواجه تجارب ومصائب الحياة. أمّا البنت المبتهجة السعيدة، فقد تعلّمت أن تتعامل معها بحيث تظل مستمتعة بالحياة. ما من رجل يقدر على إسعاد امرأة ناقمة على الحياة. والمرأة التي لا تستقي البهجة من اللّبّع الذي بداخلها لن تجد تلك البهجة في صعوبات وتجارب الزّواج والأمومة.

فترة الخطوبة مثل حديقة في الربيع: حيث يُبشّر كل شيء بمستقبل رائع؛ لكن الزّواج مثل حديقة في شهر أغسطس: عندئذٍ تُثبت التربة جدارتها، وتظهر أهمية البذرة الجيدة والحيطه من

الأوبئة والآفات والأعشاب الضارة. قد تفسد ثمرة البطن قبل الإنبات، لذلك تحرّ العناية وأنت تصلي من أجل اختيار زوجة وأمّ. الفتاة التي تجرح مشاعرها وتبكي كي تحتال عليك وتتحكم فيك، ستكون طوقاً في عنقك بعد الزواج. يظهر الانسراح وطلاقة الوجه أفضل ما يظهر عندما لا تسير الأمور على هواها وحسب مناها.

أما الصفة التالية التي تبحث عنها فهي الشكر. عندما تكون الفتاة الصغيرة غير شكورة نحو أسرتها أو ظروفها، فتغير البيئة والعلاقات لن يجعلها شكورة. ليس الشكر استجابةً لمحيط الإنسان البيئي، بل بالأحرى تعبير نابع من القلب. تجنّب الفتاة الكئيبة، غير الشكورة، متقلّبة المزاج. إذا لم يكن قلبها عامراً بهجة الحياة قبل الزّواج، فهو بالتأكيد لن يكون عامراً بها بعده. قالت شابة صغيرة قد تزوّجت منذ أقل من شهر لديبي: «أنا لست من النوع الذي تُجرح أحاسيسه بسهولة، لكن منذ تزوّجت وأنا سريعة التأثر والانفعال. ربما لأنني صرت أهتمّ أكثر من ذي قبل». فأجابتها ديبي: «لا، أنت لا تهتمين أكثر. إن الأمر وما فيه أنك تشعرين بأن لك حقوقاً أكثر، ومن ثمّ تتوقعين أكثر». الجدير بالذكر هنا أنّ الشخصيات والأمزجة (الطباع) لا تتحسنّ بعد الزّواج. فعند زوال الضوابط الاجتماعية، وفي ظل علاقة حميمة أليفة، تُتاح للفرد حرية التعبير عن مشاعره الحقيقية.

أيها الصبيان، راقبوا موقف الفتاة من والدها، بصرف النظر عن رداءته وسوء طباعه؛ إذا عصت أو امره وتمردت عليه، فستعصي

أوامرك وتمرد عليك ضعف ذلك. وإذا كانت تتكلم بعدم احترام معه أو عنه، فستصرف بنفس النمط معك يا عريس المستقبل.

أما الصفة التالية التي تبحث عنها فهي الإبداع والاجتهاد في العمل. لا تتزوج بنتاً كسولة خاملة. كم من وجه جميل نال منه الكبر من كثرة الرقود بخمول في السرير بشعر منكوش وتكشيرة لا تفارقه! مهما يكن من أمر، تجنب الفتاة الكسول. إذا توقعت أن تُخدم، فدعها تتزوج بـ«جرسون» يقوم على خدمتها. كفاك مسؤولية تربية الأطفال، فلا تضيف إليها تربية زوجتك أيضاً.

ولا تتزوج من فتاة تشعر بأنها لن تحصل على أفضل رجل في العالم عند حصولها عليك. الفتاة التي تُقدم على الزواج منك وتعتقد أنه كان بإمكانها الحصول على عريس أفضل لن تقنع بك، لأنها لن تكف عن السؤال: ماذا كان يحدث لو تزوجت بفلان؟

تجنب الفتاة المفتونة بحسن مظهرها. الأفضل أن تتزوج فتاة متواضعة المظهر تقنع بأن تُحب وتُحب، عن الارتباط بواحدة تضيع سنوات عمرها في المحافظة على جمالها الذابل. الحياة كبيرة ومفعمة بالأحداث، فلا تضيعها في القيام على خدمة امرأة خائبة الظن، كل ما تفعله هو النظر في المرأة بتحسّر.

تجنب البنت التي تسعى للنجاح الوظيفي خارج بيتها.. كما لو كنت تتجنب الطاعون. يجب أن تكون الزوجة «معيناً نظيره».

وآخر مؤهل مطلوب هو حبّ الأطفال. لأن الفتاة التي لا تريد إرهاب حياتها بالأطفال تعاني من أذى داخلي عميق ينزل بها إلى هاوية البؤس. أقول هذا لأنك ستُرزق، بمشيئة الربّ، في يوم من الأيام بأطفال من صُلبك.

والآن، أريد أن أكلّمكما عن الأبوة الصحيحة. انتهز الفرصة وأنت لا تزال شاباً أعزب، دون أولاد، واعمل كما تعمل كل مخلوقات الله: جهّز العُشّ لوصولهم. فلا تضع نفسك في مهنة تمنعك من ممارسة الأبوة الصحيحة. خطّط عملك وتجارتك بحيث تتمكن من استيفاء دورك كأب وممارسته على أوسع نطاق ممكن. الآباء الذين يستحوذ عليهم نجاحهم في مجال عملهم يفشلون فشلاً ذريعاً في مجال الأبوة. ماذا تنتفع إذا ربحت العالم كله وخسرت نفس طفلك؟ قد يتعلّل بعض المدمنين على العمل بأنهم يفعلون ذلك في سبيل أطفالهم، ليوفّروا لهم الأمن والتربية الجيدة ... الخ. لو كان الأمر كذلك، فلماذا نجد أطفال الآباء الغائبين المجتهدين في عملهم، لا يقدرّون تضحياتهم، لا بل ويزدرون بنجاح أبيهم ويحتقرونه؟ يعود السّبب إلى أن الأطفال لا يندفعون. إنهم يعرفون أن غياب الأب مرجعه نقص الاهتمام بهم. ويعتقدون أن مهنته لها دافع أناني، وأن الأب يستمتع بشغله أكثر من حضورهم. سواء صحّ ذلك أو لا، فالنتيجة واحدة: النجاح في العمل زائل، أمّا الأطفال فباقون إلى الأبد. التربية التي سيحتاج

إليها طفلك لا يمكن ابتياعها في جامعة ما، إنما يبتاعها الأب الذي يقضي ساعات عديدة في صنع أشياء مع أطفاله.

إن الفكرة الحديثة التي ترى أهمية الوقت في «النوعية» لا في «الكمية» ما هي إلا مرهم لتهدئة ضمير والدي العصر الحديث المنهمكين في مشاغل الدنيا. فجدولة ساعة من الانتباه المركز الشبيه بموعد الطبيب يجعل وقتك ذا «النوعية» مجرد وفاء بموعد عمل، أو قُل جلسة علاجية. فيكاد يكون ذلك الوقت غير واقعي ومتصعّباً. إن الاهتمام المصطنع بأمور تافهة من شأنه ترخيص العسرة، ولا يتساوى هذا أبداً مع الوقت الذي نقضيه في الصراعات الحقيقية لإنجاز أهداف مشتركة. لا يبني طفل إحساسه بالقيمة بأن يكون محط الانتباه في دردشة تافهة، بل بتذليل عقبة واقعية مع والديه؛ مثل تعليق صندوق بريد أو حبل غسل الملابس، جرز الحشائش، إدخال الحطب، تلميع النوافذ، بناء بيت للكلب، مصاحبة الأب إلى العمل وتقديم مساعدة حقيقية له.

هل تذكران عندما كان النجار يأتي لتصنيع الخزانات الخشبية في متجرنا وكان ابنه الصغير الذي لم يزد على سنتين أو ثلاث سنوات يحوم حوله فينظف نشارة الخشب هنا أو يدق مسماراً هناك؟ لم يكن هناك أي تصعّب أو استعجال في تلك العلاقة بين الأب وابنه. واليوم جميع أبنائه رجال صغار، كلٌّ منهم مطمئن في دوره.

مع طفلك الأول، ابدأ دور الأب فوراً. أرح زوجتك المتعبه لمدة ساعتين بأخذ الأطفال والعناية بكل حاجاتهم. عندما تقرأ أو تستريح، ضع الطفل على حرك. عندما كان عمركما بضعة أيام فقط كنت أمدد كما على صدري لتناما طيلة الليل بلا قلق. تعودت على ذلك حتى أمكنني أن أنام نوماً عميقاً والواحد منكما مستلقياً على صدري. كانت أمكما المنهكة تحتاج إلى استراحة قصيرة.

لما كنت حديث عهد بالزواج، توقعت أن تكون زوجتي امرأة خارقة. لكن سرعان ما عرفت أنها لن تصمد طويلاً وتجتاز آلام الولادة عدة مرات، وتظل معنوياتها مرتفعة، إلا إذا أمددتها بالمؤازرة والتدعيم. عامل زوجك كزهرة رقيقة فتزداد طاقتها للعطاء.

أنا أعلم أنكما يا ولدي لستما بحاجة إلى الكثير من النوم. لكن إذا اجتاز أحدكما عملية جراحية كبرى (مثل الولادة) كل سنتين أو ثلاث سنوات، فأزال وربما وزنه خمسة كيلوجرامات، فسيحتاج بالتأكيد إلى المزيد من الراحة. لذلك دع زوجتك تنام أطول منك، فتزداد كفاءتها على العمل.

مع أنني قضيت وقتاً طويلاً معكم وأنتم صغار، لكنني كنت أقول لأمكما دائماً: «هم لك إلى أن يستطيعوا الخروج معي، وبعد ذلك يكونون لي». اصطحب صغارك في مغامرات كثيرة. استكشف العالم وأعد اكتشافه من جديد مع كل واحد منهم. كنت أضع الواحد منكم في حقيبة على ظهري وأخذه معي للصيد، لدرجة أن كلابي

اعتقدوا أننا خارجون للصيد كلما رأوا حقيبة الظهر. أعتقد أن أختكما «ريكا» ابتهجت لما جاء غابريل وأعتقها من الجلوس في ذلك المقعد المكشوف.

وفّر الكثير من «الكرايب» أو الخردة لأطفالك للتعبير عن إبداعهم؛ من كراتين ورق مقوّى وقطع خشبية ونشارة خشب ورمال وأعواد وشواكيش ومسامير. تجنّب لعب المحلات فهي قد تخنق الإبداع لأنها تحدّ الخيال.

من المبادئ الجديدة بالذكر هنا أنك كلما أكثر من قضاء الوقت معهم في صنع الأشياء، قلّت مشاكل التأديب. فالطفل الذي يعشق أباه يريد إرضاءه في كل شيء. لا يمكن أن يتمردّ الطفل على أفضل رفقاءه. وعندما يكبرون بحيث يستطيعون النظر إلى الصّور في كتاب، اقبض وقتاً معهم في قلب الصفحات. وعندما يكبرون ويدركون، ابدأ القراءة أو رواية قصص من الكتاب المقدس. وأثناء النهار، أخبرهم عن أبينا السّماوي دون تكلف أو إملاّل. وافحصوا الطبيعة معاً باعتبارها خليفة حكيمة من صنع إله مبدع.

لا تؤجل وقت الأبوة. كل يوم يكبرون فيه بدونك هو مثل نبتة الطماطم التي تنمو بدون دعامة تسندها؛ فتنشر بدون توجيه وتطلع الأعشاب الضارة وتعثّش حيث لا يمكن إزالتها. ثم تولد الثّمرة على الأرض حيث تتعفن.

أمّا الأب المتواجد، المنخرط على الدوام في حياة الطفل، فسيعرف نبض قلب أطفاله. إذا مدحت وكافأت السلوك المرغوب، سيقبل السلوك غير المرغوب جداً، حتى تُسمعه كلام تشجيع يزيد خمسين ضعفاً على كلام التوبيخ.

لكن لا تقع فريسة للبديل الذي ينصح به علماء النفس المُحدَثون وذلك بأن تهمل الطفل ثم تسرع إليه وتُسمعه أقوالاً إيجابية. هذا ليس إلا تصنع وتملق. الأقوال الإيجابية التي لا تبررها أعمال حقيقية هي أقوال مُدمّرة. يجب أن يعرف الطفل أنه قد كسب كل إطراء. لأن الإطراء غير المستند على أعمال جديدة بالمدح يظلم الطفل مثله مثل العقاب بدون استحقاق. فذلك يعلمه الكذب، لأنه يقلب الحقيقة. لا بديل لحضورك في حياتهم الواقعية. إذا لم يفعل طفلك شيئاً يستحق عليه الثناء، فلتمسك بيده وتجعله يسير بجانبك حتى يعمل شيئاً جيداً بالثناء. الأطفال المُهمَلون يصبحون أطفالاً مفروضين. ينبغي أن يستنير الطفل بحضور أبيه كما يستنير النبات بالنور لينمو ويترعّر. المطلوب هو أن يشرق الأب بحضوره في حياة أطفاله إشراقاً بطيباً مستديماً.

لا تترك التدريب الروحي أبداً على الأمّ، مهما أحسنت صنعاً، وإلاّ كبر الأطفال على اعتقاد بأن الدين للنساء فقط. نؤم الأطفال في سريرهم في المساء واقرأ وصلّ معهم.

عندما يكبر الأولاد في السنّ، احرص على ألاّ ينحصروا أكثر من اللازم في الدّراسات النظرية. فحالما يبلغون الثانية أو الثالثة عشر،

يجب أن تكون دراستهم اكتملت فينخرطون في حرفة عملية معك. استمر في تعريضهم للمفاهيم والأفكار، لكن قبل كل شيء، جهّزهم بمشاكل حياتية حقيقية يجب أن يحلّوها؛ مثل إصلاح دراجة أو محرك صغير أو أجهزة منزلية. كل أشكال البناء والصيانة هي تدريب أساسي.

المفهوم الذي تحاول توصيله لهم هو الاستقلال والثقة بالنفس. فالطفل الذي يقدر أن يدير شيئاً، ويصلحه، ويصنعه، سيجرب أشياء جديدة ويتوقع أن ينجح. وستترجم الثقة في العمل إلى نجاح في التعليم.

تذكراً صاحبنا الأمشي الشاب حين غادر بسيارته الأولى إلى الكلية في مدينة بعيدة، تاركاً وراءه كل ما اعتاد عليه، ليواجه تحديات لم تعترضه من قبل. كنت أشك في قدرته على النجاح في هذه البيئة الجديدة. ولا عجب، فهو لم يمتلك المهارات الضرورية. وكان مستواه التعليمي موازياً لطالب المدرسة الإعدادية.

فلما حاولت تحذيره من الصعوبات المقبلة، قال: «دائماً كنت أستطيع عمل كل شيء حاولت القيام به، وأستطيع عمل هذا أيضاً». كان الموقف صعباً عليه، لكنه حصل على درجة «جيد مرتفع» في امتحان نصف السنة الأول. لقد تعلّم أن ينجح.. سواء كان ذلك من صنع يديه أو عقله.

إذا أخذت طفلاً صغيراً وأرهقته بالدراسات حتى أشعرته بالنقص، فأنت تبني فيه مبدأ الفشل. علم أطفالك أن يعملوا بأياديهم أولاً، فيسهل عليهم التعليم العقلي. لا تترك أولادك في البيت مع الأم والبنات ليتعلموا منهن. لا بل يجب أن يكونوا بالخارج مع الرجال.

أيها الأولاد، أرشدوا زوجاتكم في فهم التدريب والتأديب. لا تفترضوا أنهن متأهبات بالفطرة للقيام بدور الأم. بعض الأمهات يفترن إلى الشجاعة اللازمة للتأديب، فيقلن للأطفال: «انتظر حتى يصل أبوك إلى البيت، فيؤدّبك». عندما تدخل من الباب، تشتهي أن يقبل عليك الأطفال «فيتشعبطون» (يتسلقون) على ساقيك ويشدونك من ذراعيك، لا أن ينكمشوا خوفاً في الركن. ثلاث ساعات يقضيها الطفل خائفاً من رجوع الأب إلى البيت من شأنها تدمير نفسية الطفل. اجعل زوجتك تقوم بدورها في التأديب.

حرصاً على الاتزان، اسأل نفسك هذا السؤال: «هل يعتبرني أطفالاً صارماً وقاسياً، أم رقيقاً بشوشاً ومرشداً رائعاً؟» يجب أن تحتفي أحكامك وعقوباتك في طيات الساعات الكثيرة التي تقضيها معهم في العشرة والمؤانسة السعيدة.

وأخيراً، وبعد تطوّر أطفالك ونموهم، دعهم يشعرون بجزء من صراعات الحياة. لا تكن «ناجحاً» أكثر من اللازم فتوفّر لهم كل شيء يحتاجونه أو يريدونه. إذا وجدت أن كل شيء سهل المنال، فلتخلّ عنه وتبدأ من جديد في ظروف أكثر صعوبة.

الحياة بدون كفاح تفتقر إلى الإنجاز. إذا أضع أحدهم حذاءه، دعه يستغني عنه حتى يمكنه تحويز ما يكفي من المال لشراء زوج جديد. احرص على أن لا توفر كل الأطعمة الشهية للأكل طول الوقت. دعهم يتعلمون الاكتفاء بالموجود والاستغناء عن غير الموجود. ابعث السكريات والأطعمة الجاهزة عديمة القيمة خارج الدار. لأنهم إذا لم يذوقوها، لن يشتهوها. وإذا منعهم الأكل بين الوجبات من أكل الطعام الحقيقي (اللحم، البطاطس، الخضار، السلطات، الخ.)، فلا تدعهم يأكلون إلا في وقت الوجبات.

طبعاً هناك بعض الأطعمة التي ننفر منها بسبب طعمها أو قوامها أو ملمسها. اسمح لكل طفل بواحد أو اثنين، لكن لا تجعل اختياراتهم ضيقة ومحدودة بحدود تفضيلاتهم. إذا لم يؤثر طفل الطعام الموضوع على السفرة، دعه يجوع حتى الوجبة التالية. الصوم ولو قليلاً تدريب جيد. وإذا رُزقت بطفل صعب الإرضاء لا يأكل إلا ألواناً محدودة من الطعام، أطعمه ما لا يحبّه بشكل أساسي حتى يحبّه.

إنس شراء اللعب. لا بأس ببعض اللعب العملية، مثل سيارة نقل معدنية للأولاد الصغار، أو درّاجة بثلاث عجلات أو بعجلتين للكبار منهم. أمّا البنات الصغيرات فيمكن أن يستفدن من اللعب التي على شكل صحون وأطفال رُضع. ولا تُربّ فيهم الطمع بتعويدهم على توفير كل ما يشتهونه من لعب.

لا تستسلم للموضة مهما كانت. ينبغي أن يتمتع المسيحيون بكرامة تمنعهم من الانجراف وراء تيار الإعلانات التلفزيونية. من ذلك أن يتم اختيار أحذيتهم وملابسهم ومأكولاتهم على أساس منفعتها، لا على أساس موضتها.

هوليود ليست لأولاد الله. لا تسمح بالدعاية الرخيصة الهدامة الغبية أن تدخل دارك. ينبغي تشكيل فكر أطفالك بحسب كلمة الله والقذوة المسيحية، لا بحسب آراء الشاذين والملحدين. إذا أردت تحطيم أسرتك، فلتشتر جهاز تلفزيون وجهاز فيديو لتسلية أطفالك وموأنستهم.

تتكون الأسرة المسيحية من أب وأم وأطفال، جميعهم يعيشون ويضحكون ويعملون ويتحابون ويلعبون ويكافحون وينجزون معاً لمجد الله.

يجب أن تكون رؤياك أكبر من هذا العالم الحاضر. أنت لا تعد طفلك لفترة محدودة، بل للأبدية. أنجب آدم ابناً على شبهه. وستنجب أنت أبناء وبنات على صورتك. يجب أن تكون كل مساعيك الدنيوية هادفة إلى السماء. الأول دنيوي وجسدي وزمني؛ أما الأخير فرمدي وروحي وسماوي. وكما يحمل طفلك صورة الدنيوي، ينبغي أن يحمل صورة السماوي. وكما ولد على صورتك، يجب أن يولد ثانية على صورة المسيح. التصور بصورة ابن الله هو انتظارنا ورجاؤنا. إنه طموح هائل، لكن مصادر السماء في متناولنا لتحقيقه.

تُعطى الحكمة لطالبيها، أمّا المحبّة فهي الوصية الوحيدة،
والذّات عدونا اللدود، والكتاب المقدس مصدر تعليمنا الوحيد،
والروح القدس معزينا، ودم المسيح رجاؤنا الوحيد. دعنا نركض في
السّباق الموضوع أمامنا «عَالِمِينَ أَنْ تَعَبَكُمْ لَيْسَ بَاطِلًا فِي الرَّبِّ»
(١ كورنثوس ١٥: ٥٨).